من مظاهر الإعجاز القرآنيّ (4)

بلاغة التَّذكير والتَّأنيث في القُرآن الكريم

الملامحُ البلاغيَّة لقضيَّة التَّذكير والتَّأنيث في القرآن الكريم كثيرةٌ، ولكن يُمكِنُ أن نحصر أفرادها في بابين كبيرين: الأوَّلُ؛ ألفاظٌ وردت مرة بالتَّذكير ومرَّةً بالتَّأنيث. والآخرُ؛ ألفاظٌ مُذكَّرةٌ يُؤنَّثُ لها الفعل، وألفاظٌ مؤنَّثةٌ يُذَكَّرُ لها الفعل؛ كأنَّها وردت على خلاف الأصل. وأمثلةُ الضَّربين في القرآن الكريم حاضرةٌ عتيدةٌ، ومن جملتها:

1- ألفاظٌ وردت مرةً بالتَّذكير ومرَّةً بالتَّأنيث:

وجُلُّ ما في هذا البابِ، من حمل اللَّفظِ على المعنى؛ أي أن تكون الكلمةُ مذكرة اللفظ، ولكن لها معنًى يُفسرها يكون مؤنثا، مثل كلمة (صوت) مذكرة، لكن إذا حملتها على المعنى قلت: (استغاثة) وهي مؤنثة، وعكسها كلمة (أرض) مؤنثة، لكن إذا حملتها على المعنى قلت: (مكان أو موضعٌ) وهو مذكر. قال ابنُ جِنِّي رحمه الله (ت:392هـ) في هذا الصدد: «(فصل في الحَمْل على المعنى): اعلم أن هذا الشَرْجَ، [أي النوع] غورٌ من العربية بعيدٌ، ومذهب نازح فسيح. قد ورد به القرآن، وفصيح الكلام، منثورًا ومنظومًا؛ كتأنيث المذكر وتذكير المؤنث، وتصوير معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول؛ أصلًا كان ذلك اللفظ أو فرعًا، وغير ذلك مما تراه بإذن الله.

فمن تذكير المؤنث؛ قوله[1]:

فلا مزنةٌ ودقَتْ ودْقَهَا * ولا أرْضَ أَبْقَلَ إبقَالُهَا

ذهب بالأرض إلى الموضع والمكان، ومنه قول الله عز وجل: ﴿**فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي**﴾[الانعام:78]، أي: هذا الشخص أو هذا المرئي ونحوه. وكذلك قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ**﴾[البقرة:275]، لأن الموعظة والوعظ واحد. وقالوا في قوله سبحانه: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[الأعراف:56]، إنه أراد بالرحمة هنا المطر [...].

وتذكير المؤنث واسع جدًّا؛ لأنه ردُّ فرع إلى أصلٍ. لكنَّ تأنيثَ المذكرِ؛ أذْهَبُ في التَّناكرِ والإغراب [... ولعلَّ منه قول الشاعر:]

---

[1] القائل هو: عامر بن جوين الطائي يصف أرضًا مخصبة بكثرة ما نزل بها من الغيث. يُنظر: البغدادي، خزانة الأدب، ج1، ص21. و: سيبويه، الكتاب، ج2، ص46.

يا أيها الراكبُ المزجي مطيَّتَه * سائل بني أسد ما هَذِهِ الصَّوْتُ؟

ذهب إلى تأنيث الاستغاثة. وحكى الأصمعي عن أبي عمرو: أنه سمع رجلًا من أهل اليمن يقول: فلان لَغُوب؛ جاءته كتابي فاحتقرها! فقلت له: أتقول: جاءته كتابي! فقال: نعم؛ أليس بصحيفة! قلت: فما اللَّغوب؟ قال: الأحمق»[1].

ومن أمثلة هذا النوع في القرآن الكريم:

– كلمة (موعظةٌ): قال تعالى: ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف**﴾[البقرة: 275]. وقال: ﴿**قد جاءتكم موعظة مِنْ رَبِّكُمْ وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمومنين**﴾[يونس: 56]، فذَكَّرَ الفعل في الأولى مع أن الفصل أقل، لأنه بالهاء، وأَنَّثَ في الثانية مع أن الفصل أكثر؛ لأنه بالضمير (كُمْ)[2]. وتأنيثُ كلمة (موعظةٌ) تأنيثٌ غيرُ حقيقيٍّ، والتَّأصيلُ النَّحويُّ في هذه الحال يقول بجواز الأمرين؛ التذكير والتأنيث[3]، وعلى ذلك يكون تأنيثها في موضع [يونس] على الأصل، وأمَّا تذكيرها في [البقرة]؛ فحملاً على المعنى؛ أي: من جاءه وَعظٌ وزجرٌ ونهيٌ. قال الزَّمخشريُّ رحمه الله (ت:538هـ): «وَذَكَّرَ فعل الموعظة لأنَّ تأنيثها غير حقيقيٍّ، ولأنها في معنى الوعظ. وقرأ أبيٌّ والحسن: (فمن جاءته)»[4].

– كلمة (الملائكة): فقد جاءت في سياقات الذِّكر الحكيم، مرَّةً مُذَكَّرة الفعل، ومرَّةً مُؤنَّثته، ومن جُملة ما ورد في التذكير قوله تعالى: ﴿**فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ**﴾[ص:73]، ومما ورد في التأنيث قوله تعالى: ﴿ **فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ** ﴾[آل عمران:39]، والتَّأصيلُ النَّحويُّ يحكمُ ابتداءً أن جموع التَّكسير يجوز تذكيرها وتأنيثُها على السواء[5]، ولكنَّ الإستعمال القرآنيَّ يقضي: بأنَّ كلَّ فعلِ عبادةٍ نُسِبَ إلى (الملائكة) فإنَّه يأتي بتذكير الفعل، ومن جُملته: (**فسجد الملائكة كلهم أجمعين**)، ومثله:(**لا يعصون الله ما أمرهم**).

لأن المذكر في العبادة أكمل من الأنثى، ولذلك جاء الرسل كلهم رجالاً.

---

[1] ابن جني، الخصائص، ج2، ص413-.

[2] يُنظر: السامرائي، معاني النحو، ج2، ص61.

[3] يُنظر على سبيل المثال: الأشموني، شرح الألفية، ج1، ص396 وما بعدها.

[4] الزمخشري، الكشاف، ج1، ص321.

[5] يُنظر: الأشموني، الموضع السابق.

فيما يأتي الفعل مؤنثًا مع الملائكة في البشارات، إذ لم تأت بشرى بصيغة التذكير أبداً في القرآن الكريم، فكل بشارة في القرآن الكريم تأتي بصيغة التأنيث، كما في قوله تعالى: ﴿**فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى**﴾[آل عمران:39]، وقوله ﷻ: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾[آل عمران:42]، وقوله سبحانه: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ**﴾[آل عمران:45].

– **كلمة (شفاعةٌ)**: في قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[البقرة:48]، بتذكير الفعل (يُقبَلُ)، مع قوله سبحانه في السورة ذاتها: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[البقرة:123]، بتأنيث الفعل (تنفعها).

والحقُّ أنَّ كلمة (شفاعة) مُؤنَّثةٌ في سائر القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿**إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ**﴾[يس:23]، ومثله قوله تعالى: ﴿**وكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى**﴾[النجم:26]. وعلى هذا النسق جاءت الآية الثانية من سورة البقرة: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[البقرة:123]؛ إذ المقصود نفي النفع عن الشفاعة نفسها لأن الكلام عنها هي لا عن الشفيع.

أمَّا الآية الأولى: ﴿**وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ**﴾[البقرة:48]؛ فإنَّ الكلام فيها عن الشفيع؛ أي الشخص الَّذي سيشفع، فكأنه قيل: ولا يُقبلُ من الشفيع شفاعةٌ.

– **كلمة (آيةٌ)**: في قوله تعالى: ﴿**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ**﴾[آل عمران:13]، بتذكير الفعل (كان)، مع قوله سبحانه: ﴿**وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ**

قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾[الانعام:124].

من جهة الحكم النحوي؛ يجوز تذكير الفعل وتأنيثه (لأن كلمة آية مؤنث مجازي)، لكن يبقى البحث عن السر البياني لهذا التذكير والتأنيث.

وتعليله والله أعلم؛ أنه عندما تكون كلمة (آية) بمعنى (الدليل والبرهان)، تكون بمعنى مذكّر؛ فيأتي الفعل بالتذكير، وإذا كانت كلمة (الآية) بمعنى الآية القرآنية؛ أنّث الفعل (وإذا جاءتهم آية).

– كلمة (البيِّناتُ): كذلك مما جاء فعلها مذكرًا ومؤنثا في القرآن الكريم، فقد ورد (جاءتهم البينات) و(جاءهم البينات).

ووجه ذلك أن يُقال: يؤنّث الفعل مع (البيّنات) إذا كانت الآيات تدلّ على النبوءات فأينما وقعت بهذا المعنى يأتي الفعل مؤنثاً كما في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿**فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[البقرة:209]، والآية: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾[البقرة:213].

أما (جاءهم البيّنات) بالتذكير: فالبيّنات هنا تأتي بمعنى (الأمر والنهي)، وحيثما وردت كلمة البيّنات بهذا المعنى من الأمر والنهي يُذكّر الفعل، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللّهُ قَوْماً كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُواْ أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[آل عمران:86]، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[آل عمران:105].

– كلمة (الضَّلالة): وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم مذكرة الفعل ومؤنثته أيضًا، كما في قوله تعالى: ﴿ **فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[الأعراف:30]، بتذكير الفعل (حق)، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ**

عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:36]، بتأنيث الفعل (حقت).

ووجه ذلك والله أعلم؛ أنه في كل مرة تُذكر فيها (الضلالة) بالتذكير تكون الضلالة بمعنى (العذاب)، لأن الكلام في الآخرة، ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف:29] وليس في الآخرة ضلالة بمعناها؛ لأن الأمور كلها تنكشف في الآخرة. وعندما تكون (الضلالة) بالتأنيث يكون الكلام في الدنيا فلمّا كانت الضلالة بمعنى الزيغة والانحراف عن الحق أُنِّث الفعل.

– كلمة (عاقبةُ): أيضًا من الكلمات التي جاء فعلها مذكرًا ومؤنثًا في القرآن الكريم، والملاحظ أنه عندما تأتي بالتذكير؛ تكون بمعنى (العذاب)، وقد وردت في القرآن الكريم 12 مرة بمعنى العذاب أي بالتذكير كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾[الانعام:11]، وقوله تعالى: (**فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ**﴾[يونس:73]، وقوله: ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ**﴾[الأعراف:84].

وعندما تأتي بالتأنيث؛ لا تكون إلا بمعنى (الجنّة) كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[القصص:37]، وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿**قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ**﴾[الانعام:135][1].

2– ألفاظٌ مؤنثة ذُكِّر لها الفعل وألفاظ مُذكَّرةٌ أنِّث لها الفعل:

ومن جُملتها:

– كلمة (نسوةٌ): في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[يوسف:30].

– كلمة (الاعرابُ): في قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات:14].

وقد خُرِّجت الآيتان على التقليل والتَّكثير؛ فإنَّ دلالة التذكير في اللغة (التقليل)، ودلالة التَّأنيث (التكثير)، فهم يذكرون الشيء القليل، ويؤنثون الشيء الكثير. وعلى ذلك يكون عدد (النسوة)

[1] يُنظر لهذه المواضع جميعًا: السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني، ص9 وما بعدها.

في قصة يوسف قليلاً (أخذا من تذكير الفعل قال)، وعدد (الأعراب) المذكورين في سورة الحجرات كثيرًا (استفادةً من تأنيث الفعل قالت).

إلاَّ أن هناك وجهًا آخر أجود، ذكره أبو البقاءِ الكفويُّ رحمه الله (ت:1094هـ) في (الكليات) فقال: «وَقد يتَرَجَّح أحد المتساويين فِي نفس الْأَمر مَعَ جَوَاز الآخر كَمَا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿قَالَت الْأَعْرَاب آمنا﴾، ﴿وَقَالَ نسْوَة﴾ تَنْزِيلا لَهُم منزلَة الْإِنَاث فِي نُقْصَان الْعقل، إِذْ لَو كملت عُقُولهمْ لدخل الْإِيمَان فِي قُلُوبهم، أَلا ترى النسْوَة لما وصفوا زليخا بالضلال الْمُبين، وَذَلِكَ من شَأْن الْعقل التَّامّ، نزلت منزلَة الذُّكُور بتجريد القَوْل من عَلامَة التَّأْنِيث»[1].

– كلمة (المومناتُ): في قوله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ**﴾[الممتحنة:10].

وتخريجُ هذا على النسق النحوي معروف؛ إذ فُصِل بين الفعل والفاعل بضمير المفعول (كُمْ)، فعلى ذلك جاز تأنيث الفعل وتذكيره، وقد ذُكر الفعل كما ذكروا دلالة على التقليل، ولعل فيه ملحظا يفيد المدح، إذ كنَّ نسوةً قليلاتٍ مَنْ فَعَلْنَ هَذَا الفعلَ العظيمَ (الهجرة في سبيل الله).

ثمَّ قد يُقالُ كذلك (كما قيل في نسوة سورة يوسف) أنَّه ذُكِّر الفعل، تنزيلاً لهن منزلة الذكور في رجاحة العقل وتمام التفكير الذي قادهن إلى الهجرة إلى الله ورسوله، مع ما فيها من الخطر والمشقة.

– كلمة (صلاتُهم) في: ﴿**وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾[الانفال:35]، المكاء والتصدية : هما الصفير والتصفيق، وكلاهما مذكّر؛ فجاء الفعل مع كلمة (الصلاة) مذكراً، لأن المراد بالصلاة هنا: التصفيق والصفير وكلاهما مذكر. كما أن الصلاة عندهم كانت تفيد الطواف والطواف مذكّر أيضاً، فاجتمع الطواف والتصفيق والصفير، وكلّها مذكَّرةٌ، فجاء الفعل مع كلمة الصلاة المقصود بمعناها المذكر مذكراً[2].

---

[1] أبو القاء الكفوي، الكليات، ص818.

[2] يُنظر: السامرائي، أسرار البيان، ص11.